

ندوة الموسيقى التقليدية والمتطورة لبلدان شمال الصحراء الافريقية المنعقدة تحت اشراف اليونيسكو
بالمركز الثقافي الدولي الحمامات من 6 الى 9 فيفري 1974

المحاضرة الافتتاحية

للاستاذ صالح المهدي رئيس المجمع العربي للموسيقى

الحمد لله

ان الموسيقى العربية سواء منها بشمال صحراء افريقيا أو بآسيا تشك وحدة في اصول
مقاماتها وايقاتها وتركيبها فهي كما قال الفيلسوف العربي الكندي لا تفترق بين القطر والقطر
الا بما يقابل الاختلاف الجزئي الموجود بين لهجات اللغة العربية .
وقد تجولت هذه الموسيقى مع الفتح الاسلامية فاعطت الكثير مما خلف آثاره الى
الآن في اروبا وخاصة في اسبانيا والبلقان وفي افريقيا والشرق الادنى والوسط من آسيا .
ونلاحظ هذا الاثار في وجود بعض الآلات العربية بها كالعود والقانون والرباب والناي أو
بعض المقامات كاحجاز كار و البياتي والصابا - أو الايقاعات كالوحدة والمدور والمربع واخذت
الكثير في المقامات التي احتفظت بامانة اسمائها الاصلية كلابها والنهاوند والسيكاه والكردي
وفي الايقاعات كالأقصاق والدويك والمصمودي - وفي التركيب مثل البشرف والكرينك .
وقد احدث هذا التلاقح المستمر حياة مطردة التطور للموسيقى العربية جعلتها تراثا
حضريا تستطيه لك الشعوب
وإذا ماراجعنا مختلف مدارس الموسيقى العربية نجدها تعتمد في نسيب مختلفة فيما بينها
على الارتجال سواء في العزف (استخبار الو تقسيم) او في الغناء (عروبي انشاد مقام -صوت)
وهو يعتبر انتاجا حينيا منبثقا من المؤدي نتيجة تضله في الفن وتشبعه بالتراث الذي يكسبه
الملكة وجو الطرب الذي يحدثه المحيط الذي يوجد فيه المؤدي عند الغناء او العزف وللنظارة
دور كبير في احداث هذا الجو وسان الفنانين في ذلك الشان الشعراء في احتياجهم للغاوين .
وأما التأليف الموسيقي او التلحين فقد تركز ابتداء من مدرسة قرطبة التي اثبتت فيها
القطع الغنائية ولقنت للمجموعات الصوتية بعدما كانت اصوتا شبه مرتجلة مركزة على مقام
وابقاء مغنيين كما وقع تبياناه في كتب الادب وخاصة منها كتاب الاغانى التي تبين سلم المقام
والايقاع الذي ترتكز عليه القطعة لو تبين طول مختلف درجاتها لتصور تلحينها بالضبط).

وفي مدرسة قرطبة ركزت الاصول الاولى للتركيب الموسيقية التقليدية مثل النوبة والوصلة في المغرب وفي المشرق العربيين الذين انبين عليهما الفاصل في تركيا والسنفونية في الغرب حيث بين عبد الرحمان بن نافع التدرج المتبع في تلكم التراكيب : من الغناء الخالي من الايقاع الى ما يؤدي على ايقاع بطئي ثم ما هو اسرع الى ان يصل الى المحركات والاهازيج واستمرت حياة الفن العربي تنتقل من جيل الى جيل بواسطة السماع مع ما يضيفه كل جيل مما يتاثر به من تطور ومن اتصالات خارجية وهكذا وصل الينا التراث في النصف الثاني من القرن الماضي الذي بدأت فيه بعض المؤسسات في كتابة وترقيمه مع استمرار التناقل بالحفظ وقد كانا مؤتمر الاول للموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة سنة 1932 مبعث اهتمام كل البلدان العربية بموسيقاها واخذت من ذلك التاريخ تشعر بالخطر المحدق بهذا الفن الذي يعتبر من ابرز دعائم الثقافة التي تشكل كيان الشخصية العربية وانطالقا منه تكونت الفرق والجمعيات والمعاهد كاجع وسيلة للمحافظة على الشخصية في عز وجود الاستعمار الذي شجع كل بادرة للخلط المفسد سواء في كلمات الاغاني او في اقحام بعض الآلات التي لا تتماشى وطابع موسيقانا ولا تؤدي خصيات اكبر نسبة من مقامتنا او "طبوعنا" .

وبواسطة هذه المؤسسات امكن الحفاظ على تراثنا الموسيقي المشترك وعلى سبيل المثال سجل بالمغرب ثماني نوبات من احدى عشرة نوبة وفي تونس تمت كتابة جميع النوبات وتسجيلها ونشرت منها سبعة في الجزائر بدأت الاستعدادات للنشر وفي مصر اصدرت اللجنة العليا للموسيقى عدد هاما من نشرات التراث وفي سوريا ولبنان برزت عدة منشورات للتراث اذكر منها التي اعدھا الاستاذ سليم الحلو و "من كنوزنا" للمرحوم فؤاد رجائي واخيना نديم الدرويش وفي العراق ضبط المقام واعدت اللجنة الوطنية للموسيقى كتابا في شأنه وانشئت مهرجانات الموسيقى التقليدية في كثير من البلدان العربية من اهمها المهرجان السنوي بتستور بتونس ومهرجان الجزائر الذي ينتظم كل سنتين ومهرجان فاس وبرز العديد من الاصطوانات للتراث من مختلف البلدان كما ان اذاعاتنا الوطنية قامت بدور هام حيث نبث يوميا من التراث ومنها التي اعدت برامج خاصة للتعريف به وتلقيه ولا نهمل الدور العظيم الذي قامت به وزارات التربية بادخالها لهذا التراث في برامج التعليم والفرق المدرسية كما ان المؤسسات الموسيقية التابعة لليونيسكو تطرقت في الكثير من مؤتمراتها الى بحث انجع الوسائل المحافظة على التراث حيا متداولاً وقد احدث لذلك معهد دوني للموسيقى المقارنة بادر الى اخراج عدد هام من الاصطوانات لمختلف البلدان الشرقية بما فيها العربية وقام بتنظيم عدة حفلات لفرق شرقية في العواصم الاوروبية. وقامت وزارات الثقافة بتقديم التراث العربي في البلدان الاجنبية بواسطة الاسابيع الثقافية وفي نطاق التبادل الثقافي .

كل هذه الحركة ساهمت في بقاء تراثنا الموسيقي حيا وفي ايجاد عناصر من الشبان تعزز بتداوليه وفي استمرار وجود عدد كبير من المترددين على حفلاته
الانتاج :

ان للانتاج الموسيقي العربي مدرستين المدرسة التقليدية التي تطبق القواعد الموروثة وتحترم الاصول القديمة فتجاريها ولا تتعدى حدودها والمدرسة المجددة وهذه لا تعترف بقيد وتطلق العنان لكل ابتكار وتبحث عن التغيير ولو ادى بها ذلك الى الاقتباس عن المدارس الاجنبية .

وقد وجدت النزعاتان من اقدم العصور وحدثنا ابو الفرج الاصفهاني عنهما خاصة فيما يتعلق بالخلافات المتواصلة بين زعيم التقليدي اسحاق الموصلي وزعيم التجديد الخليفة ابراهيم بن المهدي واحتكامهما لدى الخليفة هارون الرشيد .
وقد كانت النتائج على مر العصور ان التقليدي يلقي حظا في حياته وان المجدد يلقي حظا اوفر لكن بعد وفاته.

ويعتبر وجود النزعتين ضروريا فالاولى تحافظ على الكيان والشخصية والثانية تعمل على نبذ الركود والكسل والروتينية المملة على التطلع الى التجديد المستمر والنظرة الى المستقبل، ووجودهما معا يضمن استمرار الحيوية والاصالة في آن واحد.
وفي العصر الحالي ظهرت عدة عباقرة في المدرستين فقد تزعم الانتاج التقليدي المثال عثمان الموصلي واحمد ابو خليل القباني وسليم الحلو وعبد ه الحمولي ومحمد عصمان وعلي الشعاليه واحمد الوافي ومحي الدين باش تارزي والحاج ادريس بن جلون وقد سبقهم كثيرون كانوا يخلون من نسبة انتاجهم لهم فكانوا يقدمونه على سحاب محفوظاتهم .

وقد ابرزت المباراة التي نظمها المجمع العربي للموسيقى بتونس سنة 1971 في تلحين الموشحات وجود عدة منتجين لهذا الفن حيث اسفرت على مشاركة خمسة وعشرين ملحنا بخمسة وسبعين موشحا وهم الاستادة : سليم الحلو فهيم عوض الهادي الجويني نديم الدرويش عبد الحيميد عطيه روجي الخماش حليم الرومي وسمير حليم ويفصل المجهودات المبذولة للمحافظة على التراث حافظنا بطريقة غير مباشرة على الاستمرار على الانتاج في طريقه ولا تزال برامج اذاعتنا وحفلاتنا تزخر بالشارف والسماعيات واللنقات والتحميلات والموشحات والادوار والنوبات والتوشيات الجديدة وذلك علاوة على مواصلة الانتاج على نحو الاغاني والمعزوفات الفلكلورية التي تحتاج بدورها الى بحث خاص .
التجديد والتطوير

ان هذا العنوان يعتبر مثل الاكسجان فهو ضروري وخطير فهو ضروري كما اسلفنا من حيث كونه مبعثا لحركة دموية متجددة في جسد الحياة الفنية والثقافية ..

وهو خطير جدا اذا اسئ استعماله واتخذ دون ان يسبقه تركيز للاسس السليمة التي تحفظ الكيان والشخصية .

وقد ظهر التجديد المعاصر في عدة تيارات كانت اهمها نتيجة الارتباط الوثيق بين العرب والاتراك حيث ان البشارف ولسمعيات التركية لعصمان بك وعاصم بك وطاتويس وجيمل بك لا تزال تعزف الى اليوم في اغلب البلاد العربية وقد نسج على منوالها مؤلفون عرب امثال ابراهيم العريان وعلى الدرويش ومحمد عبده صالح ومحمد التريكي وسليمان شرك وظهرت ابتكارات جديدة تأثرت بالاتراك واهص منها نوع التحميلة التي شارك في انتاجها ثالوث محمد القصبجي وعبد الحميد القضابي وسامي شوا وهي مقتبسة عن " الكريتاك " وظهرت ايضا للاهجة التركية في العديد من الموشحات والادوار العربية الشرقية وخاصة مما نتجه عبده الحمولي ومحمد عصمان - في مثل موشح "سقني الراح وافرح الارواح " وظهرت في المغرب العربي فيما يعبر عنه بالاشغال والمعروف ان اشغل هو زجل لحنه تركي اصيل او عربي على الطريقة التركية في الاداء "

وبرزت بهذا التلاقح عدة مقامات جديدة مثلا لكردي الذي لم يعرب تماما الا بواسطة سيد درويش ومحمد عبد الوهاب ورياض السنباطي بعدما كان ينعت "بالبياتي فرنجي " .
ويتفتح البلاد العربية على اروبا ظهرت حركة فينة لها عدة اتجاهات في التجديد فمن ذلك
1- المسرح الغنائي :

وقد بدأ في البلاد العربية مع احمد ابو خليل القباني احد رواد المسرح في المشرق وشاع بواسطة المطرب الشيخ سلامه حجازي وقد كان انذاك منسوجا على الموشحات القديمة ويعتمد القطع التي يكون غناؤها ارتجاليا مثل - ان كنت في الجيش ادعي صاحب العلم
من رواية صالح الدين و- سل النجوم يا شرلوت عن سهري - من رواية ضحية الغواية -
وامتازت هذا المدرسة باختتام الحفلات المسرحية بنشيد يؤديه اعضاء الفرقة تحية للجمهور
وللحكومة المشجعة ومن ابرز هذه الاناشيد "ايها القمري غرد" والصفاء قد زاد " وقد انتقلت هذه المدرسة الى المغرب العربي بواسطة محمد العقربي الذي تتلمذ عن الشيخ سلامه .

ثم ظهرت مدرسة اخرى خصصت المسرح بتلحين جديد وقد تزعمها كامل الخلعي ودوود حسني وسيد درويش وشارك فيها محمد عبد الوهاب وقد ضعف هذا الانتاج حاليا مثل شأنه في الكثير من بلدان العام لما يتطلبه من كثرة التكاليف .

برزت حاليا مجموعة من المعزوفات او القطع الموسيقية الخالية من الغناء ويعبر عنها في تونس قديما " بالسوكت " وفي الكتب القديمة " بالموسيقى المحظه" جعل بعضها كاداة لمصاحبة الرقص الشرقي مثل ما قدمه فريد الاطرش في افلامه للراقصة سامية جمال ورقصات بنات تونس وغيرها وكان البعض الآخر بمثابة قطع صغيرة فيها شيء من البراعة وطرفة صياغة الجمل الموسيقية وقد تزاغم انتاجها الاستاذ محمد عبد الوهاب حيث زدنا بعشرات منها ونسج على منواله العديد من ملحني المشرق والمغرب .

وفي المدة الاخيرة بدأ محمد عبد الوهاب ضرب عدة طيور بحجر واحد حيث جعل هذه القطع مقدمات لقصائد واغاني مثل التي تؤديها المطربة ام كلثوم واجد غيبها من الحركة ما جعلها تستعمل في مصاحبة الرقص الشرقي .

واجتهد بعض الفنانين العرب لادخال توافق الاصوات الذي هو من خصائص الموسيقى الغربية في انتاجها العربي وظهرت قطع للموسيقى الوصفية واخرى لمصاحبة الانتاج السنمائي واخير ا ظهر بعض الانتاج السنفوني مثل ما سجلناه في اسطوانة بتونس ومثل المجهودات المبذولة من مثل عزيز شزان وجمال عبد الرحيم وعربيطة والاب يوسف الخوري وعبد الوهاب سليم - وقد كان اغلب هذا الانتاج يعتمد على تراكيب او ايقاعات او حتى مقامات من الموسيقى العربية منسوجة على الطريقة البوليفونية الكلاسيكية الغربية

الاجاني :

لقد كان للوسائل الاعلامية والسمعية البصرية دوار كبيرا في تقريب طرق انتاج الاغنية وتداخل اللهجات المحلية في ذلك وفي هذا تدعيم للوحدة الثقافية العربية قد صرنا نسمع انتاجا مغربيا في لهجة مصرية او تونسية وانتاجا تونسيا على ايقاع مغربي وطريقة ليبية وهلم جري ولكن ظهرت نزعة اخرى اختلطت فيها الاتجاهات والقيم حيث صار بعض الانتاج غربيا بحتا بكلامات عربية ؟ وادخلت بعض الآلات المنوسبة للموسيقى الخفيفة الاروبية في التلحين الجاري مجرى الكلاسيكي العربية وقد سمعنا الارغن الكهربائي حتى في اغاني المطربة ام كلثوم التي نعتز بها ونرى فيها استمرار التراث العربي

وقد كانت التجارب تعتمد على الحماس الشخصي ولم يجتمع فنانون من اقطار عربية مختلفة لبحث هذا الموضوع الا في هذه المناسبة التي يرجع لها الفضل الاول الى منظمة اليونيسكو والمجلس الدولي للموسيقى والوزارة التونسية للثقافة

وعلينا الآن ان نسبر ما تم في كل بلد عربي في هذا الشأن وان نتبحث بعد ذلك في الطرق مؤخرة الركب العالمي في التجارب المتطورة التي تشجعها الكثير من الحكومات الغربية ويعطيها المجلس الدولي النصيب الاوفر في المباراة الدولية التي ينظمها سنويا في الانتاج الحديث

والمعروف ان الطرق الغربية الكلاسيكية في التأليف الموسيقي التي ادخلناها على انتاجنا في السنوات الاخيرة كاداة تطور - قد اخنى عليها الذي اخنى على لبد - ومنذ خمسين سنة برزت الحركة "اللامقامية" وتلتها "السريالية " الى ان وصلنا الى الموسيقى الالكترونية ولم يقم حتى الآن أي فنان عربي بالانتاج في هذه المدارس ولم تقم أي حكومة عربية بإنشاء استديو للموسيقى الالكترونية يستعمله المؤلفون في انتاجهم الحديث .

فلا بد لنا في رايي من الاطلاع والممارسة لكل التيارات الحديثة الى ان يوجد علينا الدهر بعقري يقدم لنا مدرسة جديدة غير مسبوقة تفتح المجال لموسيقى عربية اصلية ومتطوعة نساهم بها في انماء الحضارة الانسانية .

ولبلوغ هذا الهدف لا بد من تضافر جهود التعليم والثقافة والجامعات والمؤسسات الاعلامية والموسيقيون انفسهم .

والسلام

صالح المهدي